أول من أسلم من الفتيان ورابع الخلفاء الراشدين

علي بن أبي طالب .. أبو تراب

علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصهره، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، نشأ في كنف النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم صغيرا قبل أن يبلغ الحلم، وكان من أوائل من أسلم، نافح عن الإسلام صغيرا وشابا وكهلا، وشارك في غزوات الإسلام الكبرى، عُرف بالشجاعة وتوقد الذكاء والفقه بأمور الدين والحكمة.

إبان خلافته نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى الكوفة، وقد استغرقت عهدَه الفتنُ على إثر مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فحارب الخوارج والسبئية، وقُتل على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي سنة 40 هـ.

المولد والنشأة

ولد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي أبو الحسن، في شعب بني هاشم بمكة قبل البعثة بـ10 سنين وقبل الهجرة بـ23 عاما.

ووالده أبو طالب (واسمه عبد مناف) سيد من سادات قريش آل إليه شرف السقاية والرفادة بعد وفاة والده (جد علي) عبد المطلب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم التي شاركت زوجها في تربية النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة جده، وقد كانت سيدة من سيدات بني هاشم اللواتي يشار إليهنّ بالبنان.

كفله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعد أن أصاب قريشا قحطٌ شديد أورث الناس جوعا وفقرا، وكان أبو طالب كثير العيال، فأراد النبي عليه السلام أن يخفف عن عمه بعضا من همه، كما أراد من هذه البادرة أن يردّ بعض الجميل لبيت عمه الذي نشأ فيه، وكان دَيدَنُه المسارعة إلى مكافئة من يحسن إليه قال صلى الله عليه وسلم: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافأناه، خلا أبا بكر».

ومنذ أن بلغ السادسة من عمره أقام علي في بيت ابن عمه محمد صلى الله عليه وسلم فتفتح وعيه في بيت من أنبل بيوت قريش المشهود لها بالفضيلة والخلق الرفيع وحسن السيرة في الناس، بعد أن تشرّب موروثات العرب الكريمة في بيت أبيه سيد قريش ووريث بني هاشم.

وظل علي منذ أن دخل بيت النبي الكريم مرافقا له لم يبرحه إلا لمهام يكلفه بها –عليه الصلاة والسلام– زهاء 17 عاما في مكة، و10 أعوام في المدينة المنورة.

إسلامه

ولم يلبث الفتى بعد أن دعاه ابن عمه إلى الدين الجديد حتى آمن به وصدقه، فكان أول الفتيان إسلاما، وكان إذ ذاك بعمر العاشرة.

وقد اختلف الرواة فيمن أسلم أولا، غير أن أرجح الآراء مستقرة على أن أولهم من الرجال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومن النساء خديجة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، ومن الفتيان علي بن أبي طالب.

هجرته إلى المدينة

عُرف علي بالشجاعة والإقدام منذ نعومة أظفاره، وكان محبا للنبي الكريم، فلم يتردد وهو فتى يناهز الـ20 من عمره بالنوم في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة، وكان المشركون يتربصون بالنبي ليقتلوه في فراشه.

وبقي عليّ آخر الناس هجرة إلى المدينة بأمر من رسول الله حتى يردّ إلى الناس ودائعهم التي كانوا يستأمنون عليها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ويخرجَ بأهله من مكة إلى المدينة، فخرج علي يمشي بالليل ويكمن في النهار، حتى قدِم المدينة، فلما بلغ النبيّ عليه الصلاة والسلام نبأُ وَصوله، دعاه إليه، فأخبره الناس أن عليا لا يستطيع المشي، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم واعتنقه باكيا لما رأى بقدمَيه من الورم جراء المشي أياما، فمسح النبي الكريم بيديه الشريفتين على قدميه، فلم يشتكهما حتى استشهد.

زواجه من السيدة فاطمة الزهراء

توالى عدد من الصحابة لخطبة الزهراء بنت النبي عليه الصلاة والسلام، وفيهم أبو بكر وعمر، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم ردهم جميعا لصغر سنها، حتى تقدم لخطبتها علي بن أبي طالب فزوجها منه بعد معركة بدر (السنة الثانية للهجرة) وكان عمرها حينذاك 15 سنة بينما كان عمر علي 25 سنة.

ولم يتزوج علي على فاطمة في حياتها رغم من أن التعدد كان منتشرا في عهد الصحابة، وقد كان الواحد منهم يجمع أكثر من امرأة في ذمته، غير أن كرامة بنت النبي صلى الله عليه وسلم منعته من ذلك، ولما عزم بعد فتح مكة على الزواج من ابنة أبي جهل منعه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك إلا أن يطلق فاطمة، فعدل عن رأيه وثنى من عزمه.

وقد أنجبت فاطمة له السبطين، الحسن والحسين، ومنها رضي الله عنها امتد نسل النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرها من أبنائه وبناته.

بعض مآثره في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

شارك علي بن أبي طالب في جميع غزوات النبي صلى الله عليه وسلم إلا غزوة تبوك، حيث استخلفه على المدينة في غيابه، ولما أثار المنافقون أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خلّف عليا إلا لشيء كرهه منه، تبعه علي يسأل عن سبب إبقائه إياه في المدينة، فقال له النبي الكريم «يا علي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»، فقال علي: «رضيتُ.. رضيتُ».

وفي العام التاسع للهجرة ولى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر إمارة الحج، فحج في الناس، وأعلن «أنه لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»، وبعث معه عليا بسورة براءة (التوبة) ليقرأها على الناس في الموسم.

وفي العام نفسه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفْدُ أهل اليمن، فبعث معهم خالد بن الوليد، فأقام فيهم 6 أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، فأوفد إليهم عليا، فدعاهم فأسلموا، فكتب للنبي صلى الله عليه وسلم يخبره، فخرّ عليه الصلاة والسلام ساجدا يقول: «السلام على همدان، السلام على همدان».

وكان علي حينها يناهز الـ32 من عمره.

وفي حجة الوداع رافق النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان معه 100 من الهدْي فنحر صلى الله عليه وسلم 63 بيده، ثم أعطى عليا فنحر ما بقي منه وأشركه في هديه.

مواقفه في ميادين الحرب

كان علي رضي الله عنه من الثلاثة الذين انتدبهم النبي صلى الله عليه وسلم لمبارزة رؤوس قريش في غزوة بدر الكبرى، كما أعطاه الراية يوم أحد (عام 3 هـ) بعد استشهاد مصعب بن عمير، وهو من الذين ثبتوا حول النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الرماة من الجبل وإحاطة خالد بن الوليد بجيش المسلمين.

وفي غزوة الخندق (عام 5 هـ) برز علي للفارس المشهور عمرو بن عبد ود، الذي كان يقوّم بألف فارس فبارزه وقتله.

وقد أظهر علي في الحديبية أدبه الجم وحبه العظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما صالح رسول الله قريشا في الحديبية كتب علي بين الطرفين كتابا (وكان علي من كتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم): «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم»، فقال ممثلو قريش في الصلح: لا نقرّ بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، فقال لعلي: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، امحُ رسول الله»، فقال علي: لا والله لا أمحوك أبدا، فقال رسول الله: «فأرنيه» فأراه إياه، فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده.

وفي العام السابع للهجرة عزم النبي صلى الله عليه وسلم على غزو خيبر آخر معاقل اليهود في جزيرة العرب، وكانت أمنع ما تكون من القلاع، فاستعصت على المسلمين أياما، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لأعطينّ الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحبّ اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه»، فتطلع جميع الصحابة لهذه المكانة، ولما كان من الغد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن علي فقيل له إنه يشتكي عينيه، فأرسل إليه، وبصق صلى الله عليه وسلم فيهما، ودعا له فبَرَأ حتى كأن لم يكن به وجع، ثم أعطاه الراية وأوصاه.

وقد لقي علي في هذه الغزوة أكبر فرسان خيبر مرحب اليهودي وكان مضرب مثل في قومه بالشجاعة والإقدام، فلقيه علي وقتله.

علمه

كان لطول ملازمة علي بن أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم أثر كبير في تكوينه العلمي، إضافة إلى ما وهب من قلب عَقول ولسان سؤول كما وصف نفسه، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم زهاء 600 حديث، وهو أكثر من مجموع ما رواه الخلفاء الراشدون الثلاثة الآخرون مجتمعين، وحدّث عنه جمع كبير من الصحابة والتابعين.

كما قرأ علي القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وحفظه في حياته، قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي –وهو ممن عرض القرآن على علي–: ما رأيت أحدا كان أقرأ من علي.

وكذلك اهتم علي بتفسير كتاب الله تعالى، روى ابن سعد في الطبقات أن عليا قال: «سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل».

وقد امتلأت كتب التفسير بمرويات الإمام علي في تفسير القرآن وإبداء الرأي في تأويله.

ويعد علي بن أبي طالب من أكابر فقهاء الإسلام، وقد كان من الصحابة الذين أفتوا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى ابن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا قال: «أقرؤنا أبي (بن كعب) وأقضانا علي»، وقال ابن مسعود: «كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب». وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسله إلى اليمن داعيا وقاضيا.

فصاحته

اتفقت كلمة الأدباء على أن علي بن أبي طالب عَلَم من أعلام البلاغة وإمام من أئمة الفصاحة، وقد أثرى أسلوبَه الخطابي تشبّعُه من القرآن الكريم والبيان النبوي الرفيع، فضلا عما لسليقته العربية التي ارتوت من معين فصاحة الأعراب وبلاغة أهل مكة من فضل وأثر.

وكثيرا ما كان يضمّن في خطبه وشعره التعبير القرآني والمفردة النبوية والمثل السائر البليغ، حتى صار موروثه الأدبي مطلبا لكل طالب أدب وبلاغة على مر الدهور.

ومن النماذج العالية من مواعظه، قوله بعد أن صلى بالناس الفجر: «لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى أحدا يشبههم.. والله لقد كانوا يصبحون شعْثا غُبرا صُفرا، بين أعينهم مثل رُكَب المعزى، قد باتوا لله سجّدا وقياما، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، وهملت أعينهم حتى تبُلّ والله ثيابهم..».

فضائله ومكانته

لم تتعرض شخصية من شخصيات الصحابة لما تعرض له علي من التشويه والمغالاة والكذب والافتراء، فكثرت في سيرته الروايات المكذوبة والأخبار التالفة التي نسبت له الخوارق، أو ألصقت فيه من الصفات والمناقب ما ليس له، أو وضعت على لسانه ما لم يقله، فزعم بعضها الوصية له، وأنه وارث علم النبوة، ومفتاح مدينة العلم، وأن الحق يدور معه حيث دار، وأن ذكره عبادة، وحبه حسنة لا تضر معها سيئة، وغير ذلك من الأساطير والأباطيل التي لا تقوم على نقل صحيح ولا دليل صريح.

غير أن المسلمين يعرفون لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مكانته الرفيعة، فقد كان من أحب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه، وهو ابن عمه، نشأ في بيته، وأصهر إليه على أحب بناته، كما كان من العشرة المبشرين بالجنة، ولقد قربه النبي صلى الله عليه وسلم وأدناه وألقى عليه الكساء ودعا له، ونهى عن مشاقته والإساءة إليه.

وفي مكانة علي من النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث صحيحة كثيرة، منها قوله لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وكذلك لما أخذ بيده وقال له: «من كنت وليّه فهذا وليّه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه».

ولما غاضب علي زوجته فاطمة، وترك البيت وأوى إلى المسجد، ذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم وكان مضطجعا قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عنه ويقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب».

خلافته

ما إن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ونفض الناس أيديهم من دفنه حتى سارعوا إلى علي يريدون مبايعته بالخلافة، وقد أراد رضي الله عنه التملص من الأمر، ولما لم يجد بدًا أحال أمر البيعة إلى أهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فدفعوه إلى ذلك، غير أنه اشترط أن تكون في المسجد النبوي على رؤوس أهل المدينة، فقدم المسجد وبايعه الناس، وكان ذلك في 18 من ذي الحَجة عام 35 هـ. وقد كان ابن عباس يريد أن تكون البيعة في مكان خاص مخافة أن يَشْغب على الحدث الثائرون على عثمان، وكانوا منتشرين في أزقة المدينة لا يبرحونها.

استلم علي مقاليد الخلافة وهي مثقلة بالأعباء، وفي خضِم فتنة من أكبر الفتن التي واجهت المسلمين، فقد واجه رفضَ بيعة بعض المسلمين في الأمصار التي أرسل إليها الولاة لأخذ البيعة، حيث كان هؤلاء الرافضون –الذين رأى ابن حزم أن عددهم يساوي عدد من بايع وقدّرهم بـ100 ألف مسلم– يرون ضرورة المسارعة بأخذ الثأر من قتلة عثمان قبل أخذ البيعة لعلي.

وبهذا فإن عليا كان أول خليفة لا يجتمع عليه المسلمون كما اجتمعوا على سابقيه الثلاثة، أبي بكر وعمر وعثمان، يقول ابن تيمية: «كان الناس على عهد علي 3 أصناف: صنف قاتلوا معه، وصنف قاتلوه، وصنف لا قاتلوه ولا قاتلوا معه».

وقد فاقم من هذه الأزمة عوامل منها أن قتلة عثمان كانوا قوةً ولهم شوكة، خصوصا بعد أن انتقل علي بعاصمة الدولة إلى الكوفة، حيث أضحت هذه الفئات في معقلها وبين قبائلها، وتغلغلت في صفوف مؤيدي علي، وصار لها تأثير بالغ في القرار السياسي، فصار من العصي على علي وغيره أن يكسر شوكتهم.

وقد أسفر هذا الخلاف عن تهتك أصاب النسيج الاجتماعي في المدينة وما حولها، وزاد من تفاقم الأمر اعتزال كبار الصحابة العملَ السياسي الذي وصفوه بالفتنة، ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وأبو موسى الأشعري.

وقد أدى هذا الانشعاب الحاصل في وحدة المسلمين والصدع الكبير الذي فرّق الرأي إلى تفرّق المقاتلين في الأمصار، مما أضعف القوة العسكرية الإسلامية التي كانت قادرة على حسم الخلاف لو بقيت مجتمعة.

كما كان من نتيجة هذه الفتن المستعرة أن تقلصت مساحة سلطة أمير المؤمنين على الولايات واحدة إثر أخرى، بعد أن اضطربت عليه الشام واليمن والحجاز ومصر، وخرجت البصرة وخراسان من قبضته، فانحصر حكمه في الكوفة وما حولها بعد انتقاله إليها.

استشهاده

اتفق بعض ذوي القتلى من الخوارج الذين أنام علي فتنتهم على الثأر لذويهم، فتعاهد 3 نفر كان منهم عبد الرحمن بن ملجم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص.

سار ابن ملجم إلى الكوفة لتنفيذ ما اتفق عليه مع صحبه، فترصد لأمير المؤمنين في المكان الذي يخرج منه عادة وقت الفجر لإيقاظ الناس للصلاة، وكان ذلك في رمضان سنة 40 هـ.

ولما خرج من بيته ينادي في الناس الصلاةَ الصلاةَ، ثار إليه ابن ملجم وضربه بسيفه فأصاب جبهته وأسال دمه على لحيته، فمكث رضي الله عنه يوم الجمعة وليلة السبت وفاضت روحه إلى بارئها ليلة الأحد، ودفن بدار الإمارة في الكوفة.

واستمرت خلافته 4 سنين و9 أشهر وكان عمره يوم استشهد 63 سنة.